۞منهجية المقارنة وتطبيقها على بعض مظاهر الحضارة الإسلامية المعاصرة

✍ الدكتور/ مصطفى أكرور.

أستاذ مكلف بالدروس بكلية العلوم الإسلامية

-جامعة الجزائر-

الحمد لله القائل﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾[1] والصلاة والسلام على البشير النذير صاحب الرسالة الخالدة والنبوة الخاتمة ذي الفكر الثاقب والعقل النير والهدي المستقيم الذي أرسله الله بالحجة والبرهان فدعا الناس جميعا إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم.

رغم التطور الهائل في العلوم والابتكارات وهي ما يصطلح الكثيرون على أنها مقومات الحضارة الحديثة نرى الإنسان يعيش حياة قلقة بشكل عام ويقف علماء النفس والاجتماع والطب حيارى تجاه ازدياد أعداد المصابين بالأمراض النفسية والعصبية، وكلما تيسرت وسائل الرفاهية للإنسان كثرت حوادث الانتحار في الشعوب التي تعتبر متحضرة وكما تدل الإحصائيات فإن أعلى نسبة انتحار تحدث في أرقى البلاد في المستوى المعيشي كالبلاد الإسكندنافية والولايات المتحدة...فلماذا يلجأ القوم إلى التخلص من تلك الحياة؟؟.

إن علماءهم الذين ينظرون إلى كل الأمور بمنظار مادي لايجدون جوابا لهذا السؤال، ولكننا نقول إن كل هذه الظواهر ناشئة من طبيعة وفلسفة الحضارة الغربية ذاتها فالأسلس الذي قامت عليه هذه الحضارة أساس مادي بعيد عن الروحانيات... والإنسان بطبيعته التي خلقها الله تعالى مادة وروح ولا يمكن فصل جانب عن الآخر تحت أية دعوة أو نظرية.

يقول المستشرق الإنجليزى المسلم: أبو بكر أمين القسم الشرقي في المكتبة الوطنية بلندن: إن هذه الحضارة الغربية تفقد الشرف والجمال، فقيل له أما فقدان الشرف فلا ينازعك فيه أحد، وأما فقدانها للجمال فكيف والناس يرونها أروع حضارة عنيت بالجمال، جمال الطبيعة وجمال اللباس وجمال البدن وجمال البيت وجمال المرأة أيضا؟

قال: إنها فقدت جمال الروح وجمال الذوق الفطري وجمال الخلق "وعليه فلا بد من حضارة تتابع هذا الرقي وتأخذ بالناس إلى حياة روحية بحيث تحفظ التوازن دائما بين الحياتين المادية والروحية وليس هناك من يستطيع القيام بهذا الدور الحضاري إلا أمة واحدة هي أمة الإسلام التي جعلها الله تعالى خير أمة أخرجت للناس وذلك لأنها تحمل عقيدة هي أسمى العقائد فهي التي تضع الأسس للحضارة الراقية، فهي عقيدة تحترم العقل وتدفعه للبحث والنظر ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ [2]. ولدينا تشريع يهدف إلى اليسر ويتوخى المصلحة، مصلحة الفرد ضمن مصلحة المجموع، ومصلحة المجموع غير مفرط بمصلحة الفرد ومصلحة الأمة ضمن الإطار الإنساني العام ومصلحة الإنسانية من غير انتقاص لفضائل الشعوب وخصائص الأمم.

فحضارتنا الإسلامية هي التي تخفف من شقاء الإنسان، وتحقق له قسطا أكبر من الأمن والطمأنينة، والقرآن يبين انفرادنا بجدارة بالدور الحضاري الذي تتطلبه الإنسانية عن جدارة قال تعالى:﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[3] وكذلك قوله تعالى:﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾[4].

ومن خصائص حضارتنا الإسلامية أنها إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة فالقرآن الذي أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع منابته ومواطنه، في قوله تعالى:﴿ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[5] حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحق والخير والكرامة،

جعل حضارته عقدا تنتظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفاخر بالعباقرة من أبناء جنس واحد وأمة واحدة إلا الحضارة الإسلامية، فإنها تكرم العباقرة الذين أقاموا صرحها من جميع الأمم والشعوب فأبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وخليل وسيبويه والكندي والغزالي وابن رشد رحمهم الله وأمثالهم، ممن اختلفت أصولهم وتباينت أوطانهم، ليسوا إلا عباقرة قدمت فيهم الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتاج الفكر الإنساني السليم.

وإن العلماء الباحثين في الحضارة يقولون بأن الحضارة تتألف من العناصر الأربعة الرئيسية: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد والأخلاق ومتابعة العلوم والفنون، ولاطراد الحضارة وتقدمها عوامل متعددة من جغرافية واقتصادية ومعنوية كالدين واللغة والتربية، ولانهيارها عوامل هي عكس تلك العوامل التي تؤدي إلى قيامها وتطورها ومن أهمها الانحلال الخلقي والفكري واضطراب القوانين وشيوع الظلم والفقر وانتشار الفوضى وفقدان الموجهين المخلصين وأن المنصف يجد أن الإسلام هو الذي شمل هذه الجوانب ووضع لها الأسس القويمة وقصة الحضارة تبدأ منذ عرف الإنسان وهي حلقة متصلة تسلمها الأمة المتحضرة إلى من بعدها.

وتكاد لا تخلوا من تسجيل بعض الصفحات في تاريخ الحضارة، غير أن ما تمتاز به حضارة عن حضارة إنما هو قيمة الأسس التي تقوم عليها، والفضائل والعلوم التي ترتكز عليها، والخير العميم التي يصيب الإنسانية من قيامها، وكلما كانت الحضارة سامية في عقيدتها عالية في رسالتها خلقية في اتجاهاتها، واقعية في مبادئها، كانت أخلد في التاريخ وأجدر في التكريم وأولى بالبقاء، ولذلك كل حضارة فيها عنصران: عنصر روحي أخلاقي وعنصر مادي.

أما العنصر المادي: فلا شك في أن كل حضارة متأخرة تفوق ما سبقتها تلك هي سنة الله في تطور الحياة ووسائلها. فالعنصر المادي وحده في الحضارات ليس هو أساس التفاضل بينها.

أما العنصر الأخلاقي والمعنوي: فهو الذي تخلد به الحضارات وتؤدي به رسالتها في الحياة.

والإسلام دعا إلى الأخذ بكل علم نافع دينيا كان أو دنيويا، وإلى أخذ الحكمة من أي منهل. وهكذا أرسى الإسلام المناخ النفسي والاجتماعي لازدهار العلم، قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾[6]. وقال:﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[7] وقال:﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[8].بل بدأ التنزيل الكريم يحث المؤمنين على العلم والقراءة والبحث قال تعالى:﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾[9].

كما أشاد القرآن بقيمة الصناعة في مسيرة الحياة البشرية حتى أن رسل الله وعباده المصطفين كانوا من أصحاب الحرف والصناعات من ذلك نبي الله نوح عليه السلام صانع السفينة قال تعالى:﴿ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه﴾[10] وسيدنا إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل وهما يرفعان القواعد قال تعالى:﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾[11].

وداود عليه السلام يصنع الدروع والأسلحة من الحديد، قال تعالى:﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم﴾[12]. وسليمان عليه السلام تسيل له عين القطر ويسخر له أهل العلم

كما سخر الله له الجن فقال سبحانه:﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾[13]. وذو القرنين يصهر المعادن ويخلطها للوصول إلى مادة صلبة لا تلين فأقام سدا منيعا من الحديد والنحاس المذاب، قال الله تعالى:﴿آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا﴾[14] والسنة النبوية المطهرة علمت المسلمين أسس الحياة العلمية الصحيحة فقد حثت العديد من الأحاديث على طلب العلم وتعلمه وتعليمه فقالﷺ:"طلب العلم فريضة على كل مسلم"[15] وقال:"ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة"[16].

وفي أفعال الرسولﷺ الكثير مما تعلم منه المسلمون أسس الحياة العلمية الصحيحة فمثلا أقر عليه الصلاة مبدأ "التجربة" في الأمور الدنيوية والأخذ بنتائجها كما حدث في واقعة تأبير النخل عندما أقر الرسولﷺ على اتباع الأسلوب الأمثل لتحسين الإنتاج وفق ما تثبته التجربة كما شجع ﷺ الاقتباس والأخذ من النافع من الأمور التقنية والدنيوية ولهذا أخذ ﷺ مثلا برأي سلمان الفارسي حين اقترح حفر خندق حول المدينة لحمايتها من الأحزاب واستخدام ﷺ أسلوب الإحصاء فقد روى البخاري أنه ﷺ أقر بعض أصحابه بعد هجرته إلى المدينة بأن يحصوا له عدد الذين يلفظون بالإسلام فكان عددهم ألفا وخمسمائة.

هذا وإن القيمة الحقيقية للحضارة بجوانبها المختلفة إنما تقاس بمدى موضوعيتها وبمقدار آثارها على الحياة الإنسانية والشعب المتحضر حقيقة هو الذي تسود علاقات أفراده الوشائج الإنسانية التي ترتفع فوق الفردية والحزبية بقدر الإمكان والذي يحوص في مواقفه وسلوكه وعلاقته مع الشعوب والمجموعات البشرية الأخرى على أن ينتهج

الأساليب الإنسانية، والواقع إن حضارة الشعوب لاتقاس بالتقدم في الصناعة، والتقدم في العلم، إلا بمقدار ما يعبر التقدم فيهما عن الأهداف الإنسانية التي تستهدفها الشعوب، ولا يوصف مجتمع بأنه مجتمع حضاري، لأن أفراده يملكون السبق في العلم أو في الصناعة، بينما تتملك هؤلاء الأفراد نزعة الأنانية أو أية نزعة أخرى تبعدهم عن المستوى الإنساني العام في إنتاجهم الفكري أو الثقافي أو العلمي، أو سلوكهم الأخلاقي أو أسلوبهم في التعامل.

وهناك من يرون أن وجود العلم أو وجود الصناعة لدى شعب من الشعوب، علامة على الحضارة، وبناء على ذلك يعتبر هؤلاء أن كل إنتاج لهذا الشعب في مجالات الإنتاج الإنساني ظاهرة حضارية حتى لو كان علم هذا الشعب أو كانت صناعته لتهديد أمن البشرية وإثارة القلق والاضطراب فيها وحتى لو كان علم هذا الشعب أو كانت صناعته وسيلتين للقرصنة واستغلال الشعوب الأخرى أو فرض الوصاية عليها، وحتى ولو كان علم هذا الشعب أو كانت صناعته موجهة لإنتاج وسائل التدمير والتخريب أكثر من توجهها لإنتاج وسائل الرخاء وتيسير الحياة.

لقد كان للعلماء المسلمين دور أساسي وبارز في مسيرة الحضارة الإنسانية وفي تقدم العلوم والصناعات والأبحاث في شتى المجالات نظرا لكون شريعتنا صالحة للنهضة وهي أساس الحضارة ما دخل في رحابها قوم إلا انتقلوا من البداوة إلى الحضارة ومن الهمجية إلى النظام لأنه يجمع عناصر أساسية ثلاثة لا تجتمع إلا فيه، كل واحد منها كفيل بالسير بالبشرية خطوات واسعة إلى الأمام وهي:

1- العقيدة السامية.

2- الشريعة المحكمة حيث تحقق للبشر العدالة الاجتماعية الكاملة وتصلح لكل زمان ومكان.

3- فقه أو قانون أخلاقي رفيع يتطلب من الإنسان أن يتحرى الخير في كل ما يعمل، فالناس في المجتمع لا يتفاضلون إلا بالتقوى أولا وهو التدين ومراعاة أوامر الله تعالى، وثانيا بالعلم:﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [17].

فالمجتمع الإسلامي كما يريده الإسلام هو أولا: مجتمع متدين أخلاقي وثانيا: هو مجتمع متعلم متمسك بالأخلاق الكريمة يؤمن بالعلم والعمل الخير البناء، وعلى هذا الأساس قامت الحضارة الإسلامية بشتى مظاهرها فبينما كانت حضارة الفرس القدماء تمجد الأقوياء وتخضع طبقات الشعب لهم وبينما كانت حضارة الإغريق تمثل كل ما هو إغريقي فقط وتعنى عناية كبيرة بالمظهر المادي للحياة.

وبينما كانت حضارة الرومان قائمة على مبدأ أن القوي له كل الامتيازات، نجد أن الحضارة الإسلامية تقوم على تمجيد الحق والخير والعلم المنتج لصالح الإنسانية أجمع [18] فمنذ أن وجد البشر وإلى اليوم توالت حضارات على الأرض واختلفت كما ونوعا، فكانت هناك حضارة وادي الرافدين ووادي النيل، والصين والهند والمكسيك وبني إسرائيل كما يزعمون ثم الحضارة الإسلامية وأخيرا الحضارة الأوربية ومن بين تلك الحضارات تنفرد الحضارة الإسلامية بخصائص إن اجتمعت لا تشاركها فيها أي حضارة:

1- إنها حضارة أقامها الدين (الإسلام).

2- وإن هذه الحضارة الدينية أنتجت تقدما علميا.

3- وإن الدين الذي أقامها لازال صالحا لبناء حضارة أكثر تقدما من الحضارة الأوربية علميا وإنسانيا.

إن تاريخ الحضارة أو الفكر، مرتبط بتاريخ الإنسانية منذ أن وجدت كما أسلفت، تحدثت الأديان القديمة عن العقل والفكر وبحث في هذا الموضوع قدماء الفلاسفة من إغريق وسواهم وظهر في المسلمين كثير من الفلاسفة كابن رشد والفارابي وغيرهما كما أن هناك كثيرا من العلماء والمفكرين الذين قدموا للإنسانية على مدى تاريخها الطويل كثيرا من الاختراعات والمكتشفات التي سعدت بها البشرية وأسهمت إسهاما فعالا في الحضارة والتقدم والازدهار وإن ما نشاهده اليوم من تقدم ورقي في المجالات الفضائية والعلمية لهو نتيجة لتلك الجهود الجبارة والأفكار المبدعة التي هي بلا شك استمرار لأفكار أقوام سابقين .

ربما بدأت بمحض الصدفة ثم اتخذت شكلاً فكريا منظما قام على قواعد دقيقة ونظريات سليمة أثبتت الأيام صدقها وصوابها ومن ثم قدمت للأسرة البشرية الكبرى خدمات لا تنكر في مجالات مختلفة فتحت لها أفاق المستقبل الزاهر والأمل المرتجى والسعادة المرتقبة ولا أعتقد أن هناك أحدا يجادل في قيمة الفكر ودور العلم في نهضة الأمة الإسلامية ومن ثم العالم بأسره.

ومن الحقائق الثابتة أن الإسلام دين فهم وعقل وتفكير وإدراك، فهو ليس من دعلة الطاعة العمياء، أو أغمض عينيك وانقد وأنت أعمى كلا، الإسلام دين الحجة والبرهان، إنه دين قام على ذلك ولم يقم أو ينتشر بالسيف والإكراه قال الله تعالى:﴿لا إكراه في الدين﴾ (19) إنه دين يحترم العقل ويدعو إلى التأمل واستعمال الفكر﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ فالدين الإسلامي ليس كالديانات الأخرى التي يوغل بعضها في الجانب الروحي ويهمل الجانب الدنيوي بتاتا "لا رهبانية في الإسلام" أو يوغل بعضها الآخر في الجانب المادي فيعطيه أكثر مما يستحق كلا.

فالدين الإسلامي وسط بين متطرفين وحقيقة بين نظريتين فهو دين يشرع الأحكام الدينية والدنيوية ويمنح العقل جانبا كبيرا لفهم الأحكام وتطبيقها مع مراعاة الجانب التعبدي فيها أحيانا، فهو لا يعرف الانقياد الأعمى بأي شكل من الأشكال، فإنه دين اكتشاف واختراع، ودين مختبرات ومعامل وتكنولوجيا أو بعبارة أخرى "دنيا ودين".

وعليه فإن أهمية العلم ودور المفكر اليوم وعلى مر العصور جد هام وله أهمية كبرى، وقد قدم العلماء والمفكرون في الماضي لأمتهم الإسلامية وللبشرية جمعاء، جلائل الأعمال وأعظم المكتشفات والمخترعات، التي ساعدت على ازدهار المجتمعات الإنسانية في كل ميادين التشريع والاقتصاد والصناعة والطب والعلوم والفلسفة وما إلى ذلك، مما يطول ذكره فيما لو تعرضنا لذكر الأسماء.

ومما لا شك فيه أن النهضة الحديثة في المغرب نتيجة لتلك الجهود الفكرية الإسلامية وليست نهضة أوربا التي تحققت في عهد إحياء العلوم ونقلت الإنسانية من العصر الوسيط إلى العصر الحديث إلا امتدادا لنهضتها الأولى التي استمدت مقوماتها من علوم العرب وآدابهم وفنونهم خلال القرن الثاني عشر[20].

يقول المستشرق الإيطالي:"فرنسيسكو" لم تكن قرطبة وحدها خلال أيامها الزاهرة في القرن العاشر مركزا هاما للثقافة العربية الأندلسية ولكن طليطلة واشبيليا وغرناطة وبلدان ريفية أخرى كانت كذلك مراكز كبرى لهذه الثقافة بل لقد ظل بعضها على تلك الحال حتى بعد أن استردها المسيحيون... ولم يكن للنشاط الفكري والروحي يومها في تلك الآونة الخصبة التي امتدت في القرن الثالث عشر أية حدود سياسية أو دينية، بل ظل فخرا للحضارة العربية وما نما من قبساتها في التربة الأوروبية[21]، هذه شهادة أوروبي للفكر الإسلامي وللحضارة العربية الإسلامية بالتأثير على الفكر الأوروبي إبان نهضته،

وإذا كان المسلمون قد أصيبوا بنكسات وانحطاط فيما بعد العيب ليس عيب الإسلام ولكنه عيب المسلمين أنفسهم ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [22].

إن المسلمين تمتعوا بحضارة فريدة من نوعها حتى سميت المعجزة العربية فكيف حدث هذا وأجيب إنه الإسلام وحرية الرأي فيه والحوار الذي يدعو إليه ثم لغته أي اللغة العربية[23] الإسلام وذلك أن الله ﷻ عندما طلب من الناس اعتناق الإسلام طالبهم بأن يحكموا عقولهم وأن يؤمنوا عن وعي ويقين ولم يطلب منهم اعتناق هذا الدين اعتباطا بل أعطاهم الأدلة العقلية على عظمة الخالق جل وعلا قال سبحانه:﴿فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب﴾ [24] ويقول سبحانه:﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر﴾[25].

وقوله أيضا:﴿أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء﴾ [26].

وكثير مثل هذه الآيات البينات.

وبالنسبة لحرية الرأي أرى أنها تابعة أصلا لمبدأ الحرية في الإسلام ذلك الدين الذي يسوى بين الناس فلا امتياز لعرق ولا أسرة بل الكل أمام القانون سواء:﴿كلكم لآدم وآدم من تراب لا فرق بين عربي على أعجمي إلا بالتقوى﴾[27] ويقول ﷺ في حادثة سرقة:"والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها"[28].

من هذا المنطلق في المساواة كانت حرية الرأي فما دام الإنسان يسير حسب مقتضيات القانون فلا شيء في الدنيا يحد من حريته، وما أعظم صيحة عمر بن الخطاب ﷺ

التي مازالت ترن في أفئدة عشاق الحرية من المسلمين"متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا".

أخيرا فأدعوا إلى ذكر نقطة هامة جدا يجب الانتباه لها ألا وهي أهمية دور المفكر وخطورته وهذا بيت القصيد إن المفكر يستطيع أن يكون عضوا عاملا في إصلاح أمته والبشرية جمعاء كما يستطيع أن يكون معولا هداما في بناء مجتمعه العقدي والثقافي والحضاري وما نشاهده اليوم في أنحاء العالم من رخاء وسعادة وشقاء وضيق وحرب وتدمير كل ذلك نتيجة لأدوار المفكرين المعتدلين أو المنحرفين كل بحسبه.

وختاما أرجو أني قد أسهمت في الموضوع في حدود مجهودي المتواضع حيث أنني مقتنع بأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها كما أنني لا أدعي فيه الإحاطة والشمول لأن مثل هذا الموضوع كما أتصوره يستحق أن تقدم فيه رسالة جامعية ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله.

الهوامش

1- سورة الأنعام. الآية50.
2- سورة النساء. الآية110.
3- سورة الحج. الآية39.
4- سورة الحجرات.الآية49
5- سورة المجادلة. الآية58.
6- سورة الزمر. الآية39.
7- سورة فصلت. الآية 47.
8- سورة العلق. الآية 01.
9- سورة هود. الآية11.

10- سورة البقرة. الآية123.

11- سورة الأنبياء. الآية21.

12- سورة سبأ. الآية13.

13- سورة الكهف. الآية92.

14- رواه ابن ماجه وغيره.

15- رواه البخاري ومسلم.

16- سورة الزمر. الآية39.

17- د. حسين مؤنس. تاريخ الدولة العربية. ص96.

18- سورة البقرة. الآية 255.

19-انظر: رحلة الأدب العربي إلى أوربا، أ. مفيد محمد. ص21، وكتاب: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية. أ.أحمد محمد جمال. دار الفكر. ص160-166.

20- انظر كتابه: العرب. الطبعة الفرنسية. ص172.

21- سورة الرعد. الآية12.

22- سورة الطارق. الآية 07.

23- سورة الفجر. الآية21.

24- سورة الأعراف. الآية07.

25- جزء من خطبة الرسولﷺ في حجة الوداع وردت من عدة روايات عن عدة من الصحابة -رضوان الله عليهم- وممن رواها من ائمة الحديث أحمد والطبراني والبزار وأبو داود بالفاظ مختلفة، وفي الصحيح طرف منها، ورواها مطولة ابن هشام.

26- انظر: صحيح مسلم بشرح النووي. ج11. مج06. ط2. دار إحياء التراث العربي. بيروت. 1972م. ص 186.